مراتب الإيمان ومقامات الكمال

يربط القرآن الكريم مفهوم التقوى بصميم القضايا التعبدية كالوفاء بالعهد، الصبر، الحج، عدم أكل الربا، القتال، طلب الرزق الحلال، الصلاة وغيرها من الأمور الشرعية، حيث تختم أغلب الأوامر الشرعية القرآنية بتوجيه رباني صارم بتقوى الله.. فعندما يتناول القرآن الكريم موضوع النهي عن تناول الربا، يربطه بالدعوة إلى تقوى الله والثقة به: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 130)، وكذلك موضوع الإرث حيث أموال الأيتام الصغار، فإنّ الله سبحانه وتعالى لم يأمر الناس في الآية التالية بالترحّم والترؤف ونحو ذلك بل بالخشية واتّقاء الله والقول السديد (أي الرأي السديد): (لْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا) (النساء/ 9). وكذلك الوفاء بالعهد عندما ردّ القرآن على كلام أهل الكتاب بقولهم: ليس علينا في الأميين سبيل أو نحن أولياء الله من دون النّاس، ونحن أبناء الله وأحباؤه: (بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (آل عمران/ 76)، فجعل المقياس هو التقوى في الدين والوفاء بعهد الله وميثاقه والإيمان بما أنزل الله سبحانه، وليس الله قومٌ يحبهم من دون تقوى وإيمان وعمل صالح، فإنّ الخالق تبارك وتعالى لا يحب النّاس على حسب قومياتهم وأجناسهم كاليهود والعرب وغيرهم، بل إنّ الكرامة الإلهية لا تمنح إلّا للمتقين الذين لا يبرأون يذكرون الله في كل أعمالهم وأفعالهم.. والصبر والمصابرة والمرابطة والتقوى يجمعها رابط، وهو أنّ الأمر القرآني جاء ليجمعها في آية كريمة واحدة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (آل عمران/ 200)، فالصبر يراد به الصبر على الشدائد، والصبر في طاعة الله، والصبر عن معصيته، والمصابرة هي التصبر وتحمل الأذى جماعة باعتماد صبر البعض على صبر آخرين فيتقوى الحال ويشتدّ الوصف ويتضاعف تأثيره، والمرابطة، هي الارتباط بين قوى الجماعة وأفعالهم في جميع شؤون حياتهم الدينية، ثمّ تقوى الله حيث تجنب المعاصي ووقاية النفس ممّا يغضب الله سبحانه.. وكان العرب في الجاهلية يعتبرون المرأة عنصراً ساقطاً لا قيمة ولا كرامة له، وعندما جاء الإسلام نزلت مجاميع من الآيات القرآنية. في أمر النساء حول الزواج والتحريم والإرث وغير ذلك، وقد نزلت هذه الآيات حين كلّم النّاس رسول الله (ص): (وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ) (النساء/ 127). فأُرجعت للمرأة حقوقها المهدورة في جميع مجالات الحياة.. (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) (النساء/ 131)، وفي هذه الآية الكريمة تأكيد في دعوة النّاس إلى مراعاة صفة التقوى في جميع مراحل المعاشرة الزوجية، وفي كلّ حال، وإنّ في تركه كفراً بنعمة الله.. وإن تكفروا فإنّ لله ما في السماوات وما في الأرض.. أي إن لم تحفظوا ما وصّينا به إيّاكم

والذين من قبلكم وابتعدتم عن تقوى ا، فإنّه كفرٌ بنعمةِ ا، وهذا النوع من الكفر يصطلح عليه في الشرع الإسلامي بالكفر المستكن أو المستبطن. وحتى في القصاص، وردّ َ الاعتداء بالمثل أمر الإسلام بمراعاة صفة التقوى، حيث ذكر القرآن الكريم أنّ الحرمات قصاص، والحرمات هو ما يحرم هتكه، وهي حرمة الشهر الحرام، وحرمة الحرم، وحرمة المسجد الحرام، فإن اعتدى المشركون فعليكم الرد، فإنّكم إنما تجاهدون في سبيل ا (الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (البقرة/ 194). وفي آية أخرى ربط القرآن الكريم بين العلم والعمل، ودعى إلى التقوى لئلّا يفقد المشتغِل بطاعة ا معنى العمل (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ) (البقرة/ 197)، وفي هذه الآية المباركة وجوه إشراقية جميلة فمعنى التزود أن أخذ الزاد يتم في فترات كالتزود بالطعام والتزود بالوقود وغيره، وعلى هذا فإنّ التقوى تحتاج إلى تزود دائمي من ذكر ا سبحانه، وربط الأعمال الحياتية كلّها بعنصر الخوف والخشية منه تعالى، وهذا الأمر لا يدركه إلّا أصحاب العقول السديدة الواعية ولذلك ختم ا سبحانه الآية الكريمة بقوله: واتقوني يا أولي الألباب، دلالة على أنّ مفهوم التقوى لا تدركه إلّا العقول السليمة والقلوب الواعية والنفوس المبصرة.. إنها دعوة فيها الكثير من الحنان والمودّة من الخالق عزّ وجلّ إلى الطبقة الواعية المفكّرة من مخلوقاته التي تعيش على هذا الكوكب.. فوضع القرآن الكريم أنّ البر هو التقوى، والتقوى هي الصفة التي تجتمع فيها جميع مراتب الإيمان ومقامات الكمال.